الباب الثالث

المتاهة الكبرى فى العقل

المقال الأول
نحتاج إلى جراحة لإنقاذ القيم

أين أنت يا جدتى، يا معلمتى الأولى، كى تفصلى بين ما أرى وما تعلمت، بين ما شاهدت وما فكرت، بين كل لفظة أدركها ولا استدركها، اكتبها فهما، وأقيمها علما، تناثرت المفردات فأصبحت الحقيقة كالإبرة فى قش فى غرفة ظلماء، فى ليل غير قمرية، نعم يا جدتى ما هذه المتاهة العقلية، إنها كم كبير يستقبل دون استعداد عملى للاستقبال، فلا العقل مهيأ ولا المدرب قادر على أن يعلمنى، ولا السلوك متطابق، فأصبحت فى خانة الانتباذ، فهل خلقت أو خلقنا لنعيش بشكل متناثر أم إننا نعيش فى ظل جماعات تتعارف تتآلف فما أصعب الوجود دون ألفة، أما نتذكر قول الله تعالي

(ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكروأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)، (الحجرات- ١٣).

إذن فنحن أمام فرد يتناسل ويتوالد ويتكاثر فتنشأ مجموعات بشرية مختلفة متباينة قد تشترك فى صفات وتختلف أخرى إلا أنه فى النهاية علينا أن نصل إلى معيار التفضيل والتقييم، فمعيار التقييم هو التقوى، فكيف تأتى وكيف نحصل عليها إلا بغرس القيم، إن الفرع لا يصلح إلا من أصله، فلا صلاح لفرع له جذر فاسد، أو مواد فاسدة تغذية، أو تربة خاوية خلت من عناصر الغذاء المتكامل، أو زارع فاسق عديم الضمير فى زرعه وأرضه فإن منبع القيم من صلاح الخلق. قال تعالى : **(وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ) الأعراف: ٥٨.**

إن متاهة العقل جاءت من متاهة النفوس والسلوك المبعثر الفوضوى، وإن عدم زرع الأخلاق والقيم لا يمكن معه صلاح النفوس، وإنه لا يمكن تغيير أى أمر

إلا أن نبدأ بأنفسنا، حتى يصبح التكرار اعتيادا فسمة فلسلوكا فصفة فنموذجا لحضارة إنسانية تحمل معها القيم والأخلاق فهل نحن ناقصو الأخلاق أم ماذا؟

إن الأخلاق هى ناتج وليس مدخلا، وناتج الأخلاق ما يأتى إلا من خلال منظومة متكاملة لمجموعة القيم التى تعتبر الغذاء الرئيسى من خلال عدة نظم ومعايير، فلنرى أين نحن منها ؟ وأين العقل من متاهة القيم التى نبحث عنها لنخلق مجتمعا سوى السلوك مكتمل الجوانب، إن القيم المغذية هى قيم اقتصادية، تنشأ من نظام اقتصادى، وقيم سياسية تنشأ من نظام سياسى، وقيم دينية تنشأ من نظام دينى وعقائدى، وقيم أسرية تنشا من نظام أسرى مجتمعى به معايير اجتماعية كالعرف وهناك العادات والتقاليد والسلوك الفردى، وهو سلوك هام جدا لأن الفرد ينتمى إلى جماعة ويسلك أسلوب المجاراة، أى ما يتوافق مع الجماعة وما تقوم به، وتأثير المجاراة هو ما يترتب على مجاراة الجماعة وأسلوب المجاراة له تأثير على القيم الأخلاقية، فإن تأثير الاختلاط بأفراد المجتمع أو العشيرة إذا اختلفت الآراء فيما بينها والقناعات فإن اختلاف القناعات الفردية التى تخالف المجموعة يستشعر الفرد فيها بغربة السلوك أو النبذ وهى ظاهر انتباذ فرد عن مجموعة، وهنا يضطر الفرد إلى الاتجاه فى أحد البدائل الأول هو أن يحيا فى سلبيات التناقض والحيرة مع المجتمع ومع تعثر شديد فى التكيف واختلاطه بالآخرين وهى ما قد تولد مجموعة تحتية قد تمثل بؤرا صديدية ربما إذا كان فكر الفرد منشقا عن منهج الجماعة أو ان يكون الفكر الفردى مختلفا عن الجماعة، كما فى المفكرين والفلاسفة أو أصحاب العلم، وتكمن هنا خطورة المشكلة فى وأد الفكر وكم من مقاصل وأد الفكر فى التاريخ على مر العصور، والمسلك الآخر هو أن يقوم الفرد باتخاذ وسيلة المجاراة لكى يندمج فى المجموعة.

والاندماج القيمى لمجموعة القيم التى ذكرتها بالفقرة السابقة، كيف نبدو نحن منها هل نحن أمام منظومات دينية واقتصادية وسياسية واسرى واجتماعية تعيش فى ظل ظروف طبيعية، إن الريح إذا اشتدت تقتلع معها الجذور السطحية، وإذا ما كانت الجماعات أو الشعوب ذات جذور قوية فإنها كذر الرماد، فتصبح هشيما تذروه الرياح

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) الكهف.

ونحن الآن أمام أرض، ونبت، وزارع، ففى كل القطاعات القيمية، نحتاج إلى مثلث قوى يتمثل فى أرض قوية، ونبت جيد من أصل نقى، وزارع ماهر، والذى يلعب الدور الهام فى غرس القيم والأخلاق هو الزارع أو القدوة أو القائد، فكيف نخلق قائدا محترفا أو معلما محترفا أو أبا محترفا يعلم ما له وما عليه أو قيادة محترفة، وأما مربية تعلم ما لها وما عليها، نحتاج إلى بتر السلبيات المرئية أو المخفية وتعديل القدوة أو الاستبعاد والإحلال، إذن أين نحن من هذا الاحتراف؟

إن عدم وجود أى تصور مسبق فى تقديم خدمة للمجتمع لهو يعتبر بداية ظلماء يتوه معها كل أفراد المجتمع لأنهم يسحبون إلى طريق لا يعلمون نهايته، فيزداد فيه المعترضون والمزايدون والسلوكيات الشاذة الجماعات المتطرفة كما أوضحنا فى النبذ البيئى من الفرد وانسلاخه عن جماعته.

إن تحقيق أو خلق قائد محترف لا يأتى إلا من كثرة الممارسات الموجهة علميا، وإن أى جماعة فى منظومة القيم تحتاج إلى محترف يقودها لا إلى متخاذل، متكاسل، لا يرى فى الدنيا غير الأنانية الشخصية، وكأن لسان حاله يقول: أنا ومن بعدى الطوفان، إننا نحتاج إلى سلوك الجماعى وبشكل احترافى.

وان نمو الاحتراف أو العمل المحترف لدى الفرد يتمثل فى قيم أخلاقية يتغذى عليها مثل الإخلاص والعطاء والإتقان، وعليه أن ينقل ذلك إلى الآخرين، إنها فوضى الاحتراف أو زيف الاحتراف، فهل الآن تقييم القدوة فى حد العمل الاحترافى، وما نراه من إهمال وتسيب وحوادث مميتة وغش تعليمى وإهمال طبى وفوضى وفساد يحتاج إلى التعامل بشدة وبقوة وإلا سيفرط العقد وتنمو خفافيش الظلام.

إن الحرية فى بعض العقول هى الظن فى السلوك بعدم قبول الطوق حول عنق الفرد، واعتبار الحرية أمرا مطلقا، ويعتبر الفرد أن أى قوانين أو توجهات هى ضده وتمثل طوقا يقلل فيه التنفس والاستمتاع بالحياة، وهو ما اعتبره قصورا من المتلقى ومن القدوة التى عليها غرس المفاهيم حتى ينبت زرعا مجتمعيا قابل للحصاد ليستفيد منه الأجيال القادمة.

إن النهج السديد فى إصلاح البشر وسلوكهم هو أن نغرز فى عقولنا العقيدة والقيمة الأخلاقية بداخلنا، ولنعلم قول الله تعالى: ﴿**إن الله لا يغيّرُما بِقوم حتى يُغيّروا ما بأنفسهم** ﴾ **الرعد-١١**).

إن آفة المجتمعات تأتى من الوهلة الأولى إلى الغفلة وقد جاءت الغفلة فى سورة الأنبياء لتذكير البشر، **(اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ-٢**، فإن انتهاج منهج اتباع الغرائز فى السلوكيات، وعدم معرفة الأصلح تؤدى إلى الغفلة، فالميل الغريزى دون وجود تعاليم أو تعليم أو معلمين أو دعاة تصحح المفاهيم تؤدى للكوارث التى نراها فى شكل ونمو الأوراق الأخلاقية على سوق أرض الوطن فى جذع تنخر فيه القيم البالية والأخلاق الواهية لأنها لم تسق من ماء نقى، بل حاول الكثير أن يدخل ماء ناقص العناصر أو ماء مسمما فى الأفكار التى لا تتفق والمنهج العقائدى السليم فأصبحت مصادر التغذية فاسدة فى ظل زراع يجهل أساليب الزرع، وكما ذكرت سابق فى صدارة الموضوع يقول تعالى: ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ**﴾ **الأعراف: ٥٨.**

إن الغفلة كبيرة وقد نبهنا الله تعالى: **(وَلَقَدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُون). الأعراف ١٧٩**

إن الغفلة توصد طريق المعرفة وتعدم على أبواب المدينة الفاضلة القيم، وان الغفلة هى مطرقة تدمر العقل، فيصبح فى غياهب الجب لا يدرك ما لا يدرك.

المقال الثانى
نداء الطفولة

أنادى جدار الحب فى حياتى، جدارى الحب فى العمر آباى، إن الطفولة براءة رحم، وصفاء روح بعثها الله فى أنفسنا، فطفولتى بدت من أبوىَّ ، حين ارتبط كاهما، واجتمعا على ألا يتفرقا، إلا بقضاء الله.

هل تعلم يا أبى وأنت يا أمى ماذا أريد، أناديكما، من رحم التقيتما فيه كى تبعثانى للوجود بأمر الله، فهل أنا ما أردت أم أنتما على ما اجتمعتما فهل لى الخيار وحيث إنى صرت أمرا واقعا بلقاء فتحروا اللقاء بحلال طيب حتى لا أُلوَّث من قبل أن تطأ قدماى أرض الحياة فأعبث فى الأرض فسادا، فالنبتة إن بدت طيبة خرجت طيبة وان فسدت فسدت من حرمة لقاء فماذا ينبغى ان نحصل من خلفها؟

فهل علمتما يا أبى ويا أمى إننى لست مجرد بضاعة وبذر يغرس لقاء متعة تستمتعان بها وأدفع أنا الثمن ؟ لا تنظرا إلى متعتكما وانظرا إلى ما وراء المتعة والتكليف.

ألم تعلما يا أبوىَّ إننى من صنيعكما، فهل أكملتما البناء، هل راعيتما بكائى وغذائى وطعامى، أم أن صراخى وأعباء المعيشة جعلتكما تصرخان فى وجهى أن أصمت، وأن أعود، أو أن تفكرا فى وأدى لأنى أنثى أو تفرحان لأنى ذكر، قولا كلٌ من عند الله يا أبوىَّ أبعث بندائى من صرخات الطفولة البائسة بكيا أو امرح لهوا فى براءة طفولة واعدة تهللا وتكبيرا وحمدا لله

إن طفولتى التى تسعيا لبنائها، لا تصلح إلا باجتزاز المشاكل وإبعادها وعدم إقحامى فيها، إن أبى وأمى هما دار المساندة، فكيف إذا تخلى كل منهما عنى، إن من يدفع ضريبة الطلاق هو أنا، أنا الطفل الذى لا أقوى على مواجهة الحياة بدونكما، إن الطلاق وإن كان أبغض الحلال إلا أنه يضع طفولتى فى مهب الريح، فمن يرعانى وأنا الطفل الذى اذا تركت فى الرياح لا أدرى بأى أرض أثبت أو أترعرع؟

إن الطلاق ليس حلا، إنه الأنانية الخاصة، إنها عدم التنازل من الأبوين. إنه الجرح الذى يشرخ مجتمعا إلى أجزاء مبعثرة لا يلتئم مهما كانت محاولة الالتئام.

راغب فى حبكما يا أبوىَّ ، راغب فى رعايتكما، وتذكرا يا أبوىَّ أن الدنيا منقطعة إلا من ثلاث: منها ولد صالح يدعو له فربيانى على الصلاح أتذكركم وأدعو لكما، علمانى كلام الله علمانى آياته **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) الإسراء.**

نعم يا والدى علمانى كتاب الله كى أتعلم كيف أراعيكما، أما وصانى ربى بالإحسان إليكما، فأحسنا إلى فى طفولتى، وراعيا حدود الله فىَّ، فلن أنسى يا والدى ما فعلتماه لى فى صغرى.

كم صبرتم، فبقدر ما يصبر الآباء على أطفالهم بقدر ما يعطف عليهم أولادهم فى الكبر إنها الضريبة المتوازنة والمتبادلة والمشتركة، لن انسى يا والدتى ما فعلت لى لم تتوانى عن مساندتى تمسحين على جبينى ولم تتأففى من منظر تتأذين به، فكم سهرتِ يا أمى وأنت كم تعبت يا أبى.

إن لقاء المتعة مدفوع مقدما وهو ضريبة مدفوعة، وعلى كل الآباء أن يعلموا أن الاقتراب فى حد المتعة يتطلب أما حديدية وأبا له الغلبة، فليست المسالة باليسر والسهولة فى انقضاء وتر أو لذة شهوة أو لقاء جنسى يجمع بين الرجل والمرأة وينتهى كل شيء بعد ذلك. إنها السكينة والتى ينتج منها طفل ندفع له ضريبة العمر من تربية وبناء، يقوم بسدادها عند الكبر، إنها علاقة أرزاق بين البشر.

هل تعلمين يا أمى أن ما استشعرته من قلق فى طفولتى يجعلنى مضطربا وجدانيا مريضا نفسيا أكره مجتمعى وتنمو بداخلى عقدة الاضطهاد، ما أصعب وحدتى فى انفصالكما، فإن الطلاق ما أصعبه. إنه طريق الدمار، فتعقلا وتذكرا لحظة طيبة بينكما هو أنا الطفولة الصارخة فلا تعبثا بى فليست الأرحام عبثا أيها الرجال.

إن فقد أحد الوالدين أو كليهما، يبعث فى داخل طفولتى السلبية وإن كنت لا أفهمها إنما هى ذبذبات كهربية تبعث لى بدموع البكاء لا أدرى لها سببا فأوقعتنى

فى حيرة لا مثيل لها، ألا تعلما يا والدى ان بتصرفكما هذا أو ذاك سيكون مردوده على أسرتى المستقبلية إن رغبت أو أنكما بتصرفكما هذا وضعتم بداخلى عقدة الزواج وإيثار العنوسة، رغم صغرى، ومتمتمات لسانى ومترهلات حرفى فإن ما يتعرض الطفل فى حياته من ضغوط قاسية تجعل الآثار سلبية وتغرس فى داخلنا ندبا كأشواك الزمن يصعب اقتلاعها أو مداواتها فهل تعلمان ذلك أيها الآباء؟

إن الاتصال النفسى للطفولة من المقومات الضرورية لكى ينمو الطفل ويستقر، وإن الظروف الضاغطة والشاقة من حرمان عاطفى تؤثر بشكل سلبى، أريد أمنا فوفراه لى، أريد حماية، لا عجزا، لا تشعرانى بالعزلة والعداوة، فما تفعلانه لى ينصب على أرصفة المجتمع وفى حواشى المدينة، فبطن المدينة يخرج إليها الكثير، فازرعا بذرة حب بينكما يا أبوىَّ تحصدان بستان الأمل.

وأنت يا أبى ألم تفكر فى انك من تصنع الاضطراب، ألا تعلم أنك رمانة الميزان، أريدك فى أوقات ما أشد هذه الأوقات فما أصعب غيابك وما أصعب وجودك كما لو أنت غير حاضر، فحضور الغائب كحضور صلاة الجنازة تكتب فى سجلات الوفاة بمغادرة الأب حدود مسئوليته وتركها للأم.

وأنت يا أمى لا تنسى ولا تعتبرى أن أبى رجل منسى، اتركى له مساحة الحرية للقيادة، إن أبى هو السلطة الأخلاقية لحماية طفولتى وأنت جنة رعايتى فتعاونا معا، وأنت يا أبى ابعد نفسك عن الاستبداد الذكورى المرعب، حتى لا نتعلم الكذب وهو آفة كبرى.

ما أجمل قولكما فى حياتى يا والدى اصنعا لى وسائد الحب ازرع لكما وسادة المستقبل، وانزعا الخوف من قلبى ازرع لكما حصاد المستقبل ، فلا تضعا الطفولة فى مهب الرياح.

وأنت يا أمى وأنت يا أبى احتسبا أجر تربيتى، وأجر نفقتى، فإنها من ثمرات القلوب، أعلم أن تربيتى مكلفة وشاقة لا راحة فيها، واعلم يا أبى وأمى أنه ليس للعامل من عمله إلا ما احتُسب.

إنه ضمير الطفولة يخاطب كل أب وكل أم.

المقال الثالث
حين يغيب رمز المعرفة

توقفت مع نفسى، وتذكرت كثيرا ما مر فى حياتى التعليمية، وقد استوقفتنى أشياء ما زالت محفورة ولن تمحى على الإطلاق، اللقطة الأولى حين كنا نمرح فى طفولتنا، مع بعضنا البعض، كنا نتسامر كثيرا، نلعب ألعابا صبيانية، وما خلت الألعاب الصبيانية من مضايقات رزيلة من أطفال يمكن أن نطلق عليهم بيئة حسب ألفاظ العصر الحالى، وكان دائما هناك من يلعب دور الحامى أو المعلم أو الفتوة، ولم أكن فى يوم ألعب هذا الدور، وكان يقوم به الأخ الأصغر نيابة عنى لأنه لا يتفاهم إلا بالقبضة وربما حتى يومنا هذا. أما أنا فأستخدم عقلى دائما، ورغم كل هذا حين كبرنا فى مرحلة الطفولة كنا نقطع المسافات، مع بعضنا البعض ولم نستشعر بخوف فى لحظة ما، وكنت ممن عاشر فيضان مصر على جوانب النيل، وكيف كنا ننتظر ما يحمله النيل من زراعات أو غيرها تطفو على السطح، وكنا نغطس فى النيل، ولم يكن هناك من يستوقفنا بالخطأ أو الصواب إلى أن رأيت نفسى وكل المدرسة تأخذ حقن الطرطير صفا واحدة ولا يهم إن كانت معقمة فلم نعد ندرى من منا يقوى أن يقول لا وأن يقول هذا صواب أو غير صواب وبالتالى كانت النتيجة الطبيعية أصيب من أصيب بالبلهارسيا، ولم يكن هناك من يحذرنا، لقطة أخرى أعود فى أول يوم ذهبت فيه للكتاب مع أولاد عمومتى وعماتى وكيف استقبلت بعلقة لا أعلم لها سببا حتى الآن، مما ترك أثرا فى نفسى أمام هذا الشيخ المعمم الذى لم يستقبلنى بلين بل بغلظة، وتارة أخرى حين التحقت بالمدرسة، وكانت مختلطة، ونظرا لأنى كنت أقل من السن، فكان حين يأتى التفتيش، يذهب بى المعلم أو المعلمة إلى بلكونة الفصل، وأتذكر أن مدرسة النصر هى تتسم بسعة المكان، وكان بجوارى تلميذة أتذكرها حتى

الآن تدعى خضرة، هى الآن من تجار الخضار بسوق العبور، كانت لا تهتم بالنظافة الشخصية، ولذا رفضت أن أجلس بجوارها، وحين قرر المعلم عنوة أن أجلس بجوارها، قررت وأنا الطفل ألا أعود إلى المدرسة لسببين: السبب الأول لماذا عند التفتيش أخبئ فى البلكونة، ولماذا أجلس بجوار تلميذة لا تهتم بالنظافة الشخصية، أمر آخر كان هناك معونات أمريكية لطلبة المدارس فى بداية الستينات، وكنت أحرم منها لعدم تسجيلى القانونى أو ربما أخذها المسئول لنفسه فلا أعلم حينها حقيقة الأمر، المهم انتهى الأمر إلى أننى تركت المدرسة فى السنة الأولى، وحرصا من والدى وكان دائما بحكم عمله الانشغال، وهى عادة فى أغلب الأسر فى ذلك الوقت وزمام الأمور تدار بالأم والجدة، والتحقت العام التالى، بمدرسة أخرى وكررت الصف الأول الابتدائى مرتين، وهنا وجدت معلما لن أنساه فى حياتى بالمرة وكان من عائلة العدوى الصعيدية أى من العدوية، التمس فى شيئا جماليا، فألحقنى بعد مرور ثلاث أشهر من الصف الأول بجماعة الخط وجماعة القرآن، وتعامل معى بطريقة مميزة، وأعتقد أنه لو تكررت النماذج العدوية لأصبح للطلاب شأن آخر، هو اللين والحكمة والسكينة والعطاء، رحمه الله، لقد كان كل من عاصرتهم رمزا للعطاء المستمر، وكما أفرغنا وانتهينا من المرحلة الابتدائية وكان لى شرف الحصول على المركز الثانى ولقد أثرت فى كل حياتى المرحلة الابتدائية وأكاد أجزم أنها كانت من المراحل المؤثرة، وما إن انتقلنا للمرحلة المتوسطة، إلا وأن تأثرت بمدرسى اللغة العربية والإنجليزية والرياضيات وهكذا فى المرحلة الثانوية إلا أن المرحلة الإعدادية هى من أخطر المراحل فى حياة الطالب ولأنها تمثل مرحلة المراهقة المبكرة، وان الاقتراب لأى موضوعات تتعلق بالمراهقة والتغيرات المصاحبة لم نجد مرشدا واحدا يدلنا فى كل الأوجه سواء منزل أو مدرسة أو معلم أو مسجد فهى المصادر الوحيدة ولا يوجد تلفاز إلا مؤخرا، ولا يوجد إلا الإذاعة والخوض فى أمور المراهقة غير مسموح به، إذن من السرد السابق أتوقف عن مصادر القدوة الأربعة (منزل – مدرسة – معلم – مسجد) الأربعة الميمية، ان هذه الأربعة توقفت فيها على غياب دور الأب وظهور دور الأم القوية والجدة القوية جدا، قوة المعلم فى المرحلة الابتدائية وتراجع دور المعلم فى الإعدادية وإبهار من معلمى المرحلة الثانوية ومنهم أتذكر مدرس اللغة العربية وكان شاعرا وقد

قام بتنمية ذلك فيَّ حتى صرت شاعرا، ومدرس الرياضيات الذى كان يحضر بعد صلاة الفجر لحصص التقوية ومجانا وأقولها مجانا فيا حسرة أمسى على غدى، أما المسجد، كان مقصورا على تعاليم متشابهة، خلت من مضمون الفهم الدينى، ولا عجبا أننى فى هذه المرحلة تمردت على الجميع فقررت أن أتخذ من التعليم الذاتى سبيلا دون أن ألجأ إلا لغير الله، فوصلت إلى ما أنا فيه مع الثوابت فى القيم والأخلاق التى تعلمتها ممن كان لهم الأثر، واستوقفنى المرحلة الجامعية التى دخلت فيها على غير رغبة لما التحقت فيه رغم تفوقى فيها بدرجة عالية، وعينت بإحدى الجامعات وكالعادة، فنحن فى مكان لا يعترف بالمهارة بقدر ما يعترف بالدرجات سواء كانت غشا أو مجهودا، فما أكثر الغش والدرجات الزور والتى رأيت منها الكثير وكنت أرفض الغش، أيا كان نوعه، لأنه باطل يبنى عليه باطل، وعندى ثوابت لا أغيرها، من خلال فلاش باك الذى ذكرته أو الاسترجاع الخلفى لصندوق الذكريات المقل الذى ذكرته فإن كثيرا من الأحرف على الأوراق لا تعبر عما يعانيه المرء فى حياته ولا الكتابة معبرا حقيقيا لصدق الأمور لأن هناك من يحرك دفة الأمور إلى ما يرغب، وأعود لذاكرتى مع ما ذكرته فأجد التالى، إن المؤسسة التربوية أو التعليمية أو المعرفية، منتجة للقدوة، منتجه للمستقبل، فإذا كان منتج القدوة يفقد القدوة، فى كل معانيها وما آلت إليه المناهج التعليمية والتعليم والخواء الفكرى وتسطيحه المقصود لتفريغ الأخلاق والمعرفة حتى نرى خريجى جامعات وأصحاب مناصب لا يفرقون بين الزاى والذال، وإذا أردت أن تعرف التسطيح الفكرى فعليك بالاطلاع على التفاهة الفكرية فى الفيسبوك وكم الأخطاء المكتوبة فى التعليقات أو للمتحولين فى اللغة، وليس المتحولين جنسيا، إنها تفاهة الفكر وتسطيح الأمر، لقد وصلت العملية التعليمة إلى منحى مفهوم اقتصادى، لقد استطاع أحد وزراء التعليم فى مصر أن يكون أقوى من رئيس الدولة فى إخضاع وإذلال أولياء الأمور فى تحويل المدارس إلى بؤر صديدية تسمى الدروس الخصوصية، وأكاد أجزم أن العلاج يحتاج إلى عصا موسى أو عيسى لينفخ فى الطير، إنها المفسدة الكبرى، لقد كان من يحصل على درجات تتعدى ثمانون بالمائة بالثانوية العامة كان ممن يشار إليهم بالبنان، أما الآن حدث ولا حرج، خمسة بالمائة فوق المائة. إننا فى زمن العبقرية التى تجهل أصول الكتابة

لأغلب حاملى الشهادات، إن العقود الثلاثة الماضية أفرغت الضمير من محتواه والقدوة من رحاه، ولم يعد للدين من حماه، وغاب قدوة الأسرة وقاد من عاداه، لقد ضيعت الأمانة فى القدوة، فكيف نتعلم حمل الأمانة، بعد أن تراجعنا علميا، بمنهج مدروس ومبثوث فى طعامنا مدسوس من إعلامنا. إن الطفولة المبكرة تتأثر بالمعلم كقدوة، ويأخذون كلامه محمل الجد ومع إرهاق الطبقات اقتصاديا وتحويليا بزيادة رغبات البشر و بريق العيون وخروج معنى القناعة من البشر، تحولت المسألة التعليمية إلى تجارة ففرغ المضمون وضاع المنهج ومعه القدوة الذى تراه يعمل على تاكسى أو مدرسا خصوصية فى مجموعة الأباطرة التى معهم تغيرت العملية التعليمية وذهبت إلى الجحيم ولمن أراد أن يعرف انهيار التعليم والقدوة عليه أن يقارن ميزانية التعليم فى الشعوب ليعرف أهمية العلم والمعلم والتعليم، إن الأمة تحتاج إلى ثورة تعليمية، كى تنهض من ثبات العقود الماضية وليفق كل القائمين على ما نحن فيه، إن اختفاء الرموز الرباعية من منزل ومدرسة ومعلم ومسجد أو كنيسة أو معبد، تفرغ أى أمة إلى الهلاك، وإذا كانت مهنة المعلم القدوة قد قاربت للانتهاء بل أكاد أجزم أنها بدت فى التلاشى، لفقدان أخلاقيات المربى والقدوة، وفى نهاية مقالاتى أقول:

إذا أردت أن تقود شعبا بلا تعب فقل للعلم أن يغيب، وإذا أردت أن تشعل النار فى كيان الأمم فافسد أخلاق المرأة فى محيط الأسرة، وإذا أردت الحقيقة فلا تستمع لأبواق الكذب. إن الحزن فى القلب لشديد، وما تعانيه الأجيال الحالية من فقدان القدوة لهو أمر يفوق صلادة الحديد، وإن الأجيال الحالية هى أجيال حائرة، ضائعة، لا نلوم منها غير ما بدا منها، بل نلوم أنفسنا نحن أيا كان، وأما كانت، ومعلما كان، وإماما كان وقائدا، فكلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته، وإن لهاث المال قد أصابنا بالسعار، والكل منتظر النهاية لانعدام الإحساس بالمسئولية، والكل يحتاج إلى توبة حتى يشفى من السعار المسموم.

المقال الرابع
القدوة

فى مقالى السابق تحدثنا فيه عن أننا أمام أرض، ونبت وزارع، ونحتاج إلى مثلث قوى يدعم هذه الأرض، ليكتمل نموذج الحضارة الإنسانية، فإن الحضارة الإنسانية تحمل فى باطنها القيم والأخلاق، إن الله سبحانه وتعالى حين خلق الدنيا عرض الله تعالى طاعته وفرائضه وحدوده على السموات والأرض والجبال على أنها إن أحسنت أثيبت وجوزيت، وإن ضيعت عوقبت، فأبت حملها إشفاقًا منها أن لا تقوم بالواجب عليها، وحملها الإنسان، إنه كان ظلوما جهولا، يقول تعالى:

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)الأحزاب: ٧٢

وإذا أردت ضياع أمة فما عليك إلا أن تفرغ ادوار القائمين عليها، وعلى رأسهم الأسرة ممثلة فى الأب والأم، والتعليم ممثلا فى المعلم، والأمة مجتمعة فى علمائها، فهذه الثلاثية إذا أجهضت أجهضت معها الأمم، وتاهت الحضارة الإنسانية لتسقط لنا كل جنينا مشوها.

وإذا أردنا بناء أمة فعلينا أن نبحث عن كيفية خلق قائد محترف، ومعلم تربوى محترف، وأسرة من أب وأم لا يتخلى أى منهما عن الأمانة ويدرك كلاهما ما عليه وما له، **(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) النساء ٥٨.**

إن الحضارة الإنسانية تبحث عن قدوة دائما، وقال تعالى: **(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) الأحزاب: ٢١**

إن القدوة دوما يكون له تأثير قوى لما يمثله من أفعال ومواقف يحتذى بها، ويرتقى على سلم من درجات الكمال، يتحلى بالفضائل والاستقامة فى

زمن صارت فيه الفتن تنتشر كذرات الرماد فى يوم عاصف، وإن قصور المعرفة والانحراف فى الواقع الذى نعيشه والذى يختلف عن التعاليم لهو أمر يخلق فجوة بين الأجيال ولم تعد المصداقية حبلا متينا بين الطرفين، ما بين القدوة، وبين المتلقى أو المتعلم منه سواء كان عالما أو أبا أو أما أو معلما، وما أصعب ما نجد من غياب القدوة فى انتشار الجهالة لأنه لا يوجد مرجعية، وان وجدت المرجعية قد تُجنب لظروف يتحكم فيها شياطين الإنس والجن، وان القدوة فى ثلاثية البناء سواء العلماء أو الاسرة الممثلة فى الوالدين أو المعلم إذا غابت انتشرت المنكرات واستفحلت.

إن الفصام بين الفعل فى القدوة والواقع يخلق حيرة وإحباطا وجيلا متمردا لا يؤمن بقدوة ولا بولى أمر ولا بأم ولا بمعلم، فكأنما تتقاذفه أمواج الحياة فيلتقطه المتربصون، يتقاذفونه فيما بينهم، فيسقط فى براثن الهاوية وتنهار معه القيم والأخلاق فتسقط الأمة.

إن هيبة العلماء مستهدفة حتى يتساقط علمهم، وما من أمة يسقط العلم فيها إلا وبدت فى الجهالة وخيم على الأجيال مستقبل مظلم تتقاذفه التيارات المتطرفة ذات الهشاشة المرجعية فتمارس الدور التخريبى، فماذا يتبقى لأمه يتبخر فيها هيبة العلماء؟

لقد تعجبت يوما حين انتدبت فى لجنة اختبار بعض الموظفين، وكالعادة فاللجنة تختبر الشخص فى قواعد معينة منها ما يخص التخصص للمتقدم للوظيفة والبعض من أعضاء اللجنة يتناول أمورا أخرى، وكان لى شرف رئاسة اللجنة ورئيس اللجنة هو مراقب، غالبا يطرح سؤالا أو لا يطرح وقد فضلت أن أطرح سؤالا واحدا ليس لكل المتقدمين بل لمعظمهم والسؤال موجه عن عدد سور القرآن الكريم، وكان الهدف من السؤال هل المتقدم لديه بعض من أبسط المعرفة، وقد أحزننى انه لم يجب على السؤال غير ٢ ٪، من عدد المتقدمين ومتوسط أعمارهم من ٢٥ حتى ٣٥ سنة، فماذا هذا يعنى، فلنربط بين النسبة وبين الأعمار لنعرف متى بدأت المشكلة، وهو أمر يستوجب قيام علماء الاجتماع وعلماء النفس لدراسة الظواهر الاجتماعية والعمل على حلها.

إن الدعـاة تقـع عليهـم المسئولية الكـبرى، وربمـا يحتـاج الكثـير منهـم إلى إعـادة التأهيـل، لإكمـال وظيفتهـم، وأن يتدربـوا علـى مخاطبـة الشـباب بأسـلوب يتماشـى والعصـر، إن الداعيـة أو العـالم عليـه أن يكـون لديـه إلمـام معرفـى متسـع لا يقـف عنـد حـد معـين وإن فضيلـة الشـيخ محمـد متـولى الشـعراوى يرحمـه الله وغفـر لـه الـذى كان لى شـرف السـلام عليـه فـى مدينـة جـدة بـبرج دلـه بمكتـب الدكتـور اليمانـى، إنـه إمـام الدعـاة بمنهجـه وأسـلوبه الـذى يدخـل القلـوب فتلتـف حولـه الجمـوع، كان رحمـة الله يتصـف بالبسـاطة والعلـم والأدلـة وفقـه اللغـة، كان بحـرا فـى شـتى علـوم المعرفـة ولم يقتصـر علـى فرعـه فقـط ونحـن فـى حاجـه إلى أمثـال فضيلـة الشـيخ إمـام الدعـاة رحمـه الله.وكمـا يقـول مالـك ابـن دينـار: إن العلـم إذا لم يعمـل بعملـه زلـت موعظتـه عـن القلـوب، كمـا يـزال القطـر عـن الصخـرة الصمـاء.

ولنـا أن نتخيـل إذا عاشـت الأجيـال نهارهـا فـى قـول سـفيهٍ وليلهـا فـى قـول جاهـل، فمـاذا يصنـع العلـم فـى الكتـب إنـه غيـاب القدوة يـا سـادة، الثلاثيـة القاتلة مـن عـالم ووالديـن ومعلـم، إن هنـاك قـدوة زائفـة وهـى الطامـة الكـبرى، يجمـع علمـا ويعمـل سـفها، وإن تناقـض الأقـوال مـع الأفعـال تخلـق جيـلا مصابـا بالتمـرد.

إننـى رغـم كل مـا قـرأت وتناولـت وقفـت فـى لحظـة مـا أوجـه اللـوم الشـديد إلى علمـاء الاجتمـاع الذيـن لم يطـوروا أنفسـهم ولا علمهـم وكأن العلـوم الاجتماعيـة توقفـت مقابـل العلـوم الطبيعيـة التـى تسـابق البنيـان خـلال ثلاثـة عقـود، وإنـه لـن المؤسـف الباكـى أن نهتـم بالبنيـان ولا نهتـم بالإنسـان والبيـان وهـو بـكاء دامـى.

المقال الخامس
الأسرة

تعود ذاكرتى إلى جدتى و إلى بيت العائلة الذى كان يجمع فيه الأهل، وكيف كانت تبدو الحياة منظمة، يسودها الحب والتعاطف، وكانت الروابط متينة، فتقوم جدتى لتيقظ والدتى وعماتى وأعمامى، كل له دور فمنهم من يقوم بإحماء الفرن أو التنور ومنهم من يجهز الفطور فكلنا عائلة واحدة، إنها أسرة ممتدة تمثل عصا متجمعة يصعب معها الانكسار.

ومع تقدم المدنية الوهمى من الجانب المادى تراجعت الروحانيات والعواطف والقيم بل المبادئ التى بُوِّرت فى أرض الأسر الممتدة وأصبحت الأسرة عالما متناثرا لا يعرف بعضهم البعض، ونظرا لان افتقاد الأسر لمعرفة بعضهم البعض من قرابة يضيع معها ريعان الطفولة، فإن انهيار الأسر ما هو إلا ألغام موقوتة تنفجر فى عمر الطفولة، وإن الفساد الخلقى وفوضى الحياء المكشوف، وعرى الصدور ودعوى الحرية وخلل المسئولية بين كل من الآباء والأمهات تحت دعوى التساوى، أو تحت مفاهيم الذكورة أو مفاهيم التعدد إيجابا أو سلبا أو مفاهيم تكوين أسرة وما أصابها من تشتت فكرى كبير نتج عنه شرائح متعددة من العوانس والرجال الفاسدين والمطلقات والأرامل، وفى كل الشرائح ما يدفع الضريبة إلا الأطفال، فمنهم من يهرب من جحيم الخلافات الأسرية ويتشرد ومنهم من يتسرب فى تعليمة ومنهم من ينمو فى عشوائيات إباحية لا تعرف قيما، فمن أين يكتسب الطفل قِيَمَهُ ؟ فى ظل غياب دور الأم أو الأب.

إن فرط التربية أو قسوة التربية أو التربية المرفهة لا تخلق مجتمعا قويا، إننا أمام ظواهر تبدو فى العرف إجرامية، إجرام الأب فى حق أولاده وإجرام الزوجة فى حق أولادها أيضا فهناك الأب الجائر والبخيل والظالم والمتعدى، وهناك المرأة التى فقدت أمومتها أمام رغباتها فتبحث عن البدائل حتى ولو تحت الأسرة أو

فوقها ونسيت سمو رسالتها، فيتعرض المجتمع الذى نعيشه إلى ترهل وجرائم سلوكية قد لا تنتهى، وتختلط كل المفاهيم معها وتصبح الطفولة قنابل موقوتة تفرز جيلا لا يعلم أى قيم أو أخلاقيات فمن أين يكتسب مفاهيمه فى غياب الأب أو الأم؟

إن التفكك الأسرى، فى عدم احتضان الطفولة، يخلق أجيالا شيطانية ذات بؤر إجرامية، وإن الخلافات الأسرية وما ينتج عنها إلى مشاكل الطلاق فيضيف إلى سوق العوانس قنابل أخرى موقوتة منها قنابل تنفجر فى أى لحظة فتصيب من تصيب، وتدمر من تدمر، إن الكثير يتحدث عن العنوسة ولم يتحدث عن أسباب العنوسة والتى من بينها يأتى مشاهدة الطفلة لوالديها والشجار الدائم أو الخيانات المزدوجة أو أن يرى الاطفال الخيانات بأعينهم فكيف تأمن طفلة اليوم مستقبلها فى ظل بخل آباء أو آباء منحرفين أو آباء القسوة طباعهم، فيتربى لدى الطفلة وهى زوجة الغد وأم المستقبل عداء داخلى إلى رفض الفكرة من أساسها، بل إن بعضهن يرفضن خدمة الزوج لما يرينه من إهانة الأب للأم وفرض الذكورة كسياسة، وأرى أنها خيبة أمل فى الرجال، وتظل الطفلة ترى أمام أعينها أمها التى تحمل فى نهارها أعباء كثيرة وتتحمل تربية أولاد وتتحمل مصاريف لا يلتزم بها الآباء ويهربون من حدود المسئولية، بل قد رأينا أمثلة كثيرة فى اعتماد الزوج على راتب زوجته، وهى من المفاهيم التى تحتاج إلى ترتيب العقيدة.

ومن أين نأتى بالمفاهيم فى غياب القدوة الدينية أو الرمز الدينى فى التعاليم؟ وإنه فى غياب الأخلاقيات والماديات قد تنحرف الكثيرات إلا من رحم تحت وهم الجوع بصوره وألوانه فلا ينتج منه غير أطفال الشوارع، أو أطفال مجهولى النسب ولنقف أمام المحاكم لنرى المآسى بأم أعيننا، ان هذه النماذج وغيرها موجودة وبصورة واضحة إلا من رحم الله، إن الأسرة قوامها الرجل والمرأة، وهى مرفأ النعيم والسعادة لأطفال يمرحون فى أحضان وكنف الآباء، ولكن من المحزن بل قلما نجد فى عصرنا هذا غياب دور الرجل، فهل انسحبت الرجولة على أعتاب المسئولية و تخلت الأنثى عن دورها الطبيعى فى الأمومة والأنوثة فحملا إلى الشارع الطفولة المشردة؟!

إن كل التعاليم العقائدية تغرس فى نفوس الرجل والمرأة سوارا مطعما بزمرد الأخلاق وياقوتة الوفاء وماسة الود والتفاهم، فإن القيم الموروثة بعقيدة دينية

ومرجعية الخشية وتقوى الله لا يصدأ معها معادن الذهب من الرجال والإناث، وإذا نظرنا إلى أساس بل أغلب المشاكل فيما بين الطرفين لا تخرج عن النطاق المادى والفكرى والعاطفى لكلا المزيج الذكورى والأنثوى.

إن عقيدة الإيمان الراسخة وتقوى الله فيما بين الطرفين فى العلاقة المقدسة إذا بنيت على أسس متينة قوامها «من استطاع منكم الباءة فليتزوج»، ومفهوم الباءة متسع الشرح والمجال، وإننى ومن وجهة نظرى وليس بالمطلق والكلية فإن الرجل الذى انقطع عقله ندب جرحه فى صدر المرأة فصار شوكة تكره النساء الاعتراف به، فإما يصبرن أو يهجرن، والصبر والهجران بينهما وادى سحيق له قمة وله قاع، قمة لا يتحملها الكثير من النساء فتهوى إلى قاع آخر وتكرر المسألة مع رجل آخر ! إنها محنة اختيار الرجال ومحنة اختيار النساء.

وسؤالى هل يختلف الرجال فى التكوين أم فى السلوك؟ وما هو تقييم الرجل؟ إنه الخلق، «من جاءكم ترضون دينه وخلقه فزوجوه»، إنها القيم يا سادة، إن من يقرأ فى النهج الإسلامى يرى إكرام المرأة واضحا جليا، وليست المرأة التى تهين نفسها بدعوى المساواة أو المدنية الصوت المتساوى فنسيت أنوثتها للرجل وأمومتها للطفل، وفى المقابل نسى الرجل واجباته فى القوامة وتخلى عن دور القدوة، فضاعت أولاده وزوجته، وتركبت فيهم جميعا عقدا نفسية شتى بدعوى العطش المادى أو المعنوى وربما العطش الجنسى الذى بدا يخرج عن إطاره الشرعى وهو منهج ممنهج لإفراغ العفة من الأنثى ونعود إلى سوق البغايا.

إن قوامة الأسرة هى قوامة مملوءة بالحب والحنان والود قال تعالى: **{والله جعل لكم من بيوتكم سكنًا} النحل:** ٨٠، وللأسف الشديد فإن أغلب البيوت عورة إلا من رحم ربى، فهل نسى الرجال «إن الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، التى إذا نظرت إليها سرتك وإن أمرتها أطاعتك وغبت عنها حفظتك فى مالك وفى عرضك»، فليتق الرجال النساء خوفا من غياب دورهم المطلوب ولتتق النساء الرجال من كدرهن ودموعهن وكذبهن وأن يصبرن، إن دور الأم عظيم أساس ودعامة البناء الكامل الذى لا يختلف عليه كل راشد وعاقل، ويفخر به الطفل أكثر ولقد تميزت عن الرجل بثلاث مرات أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك، إن دور الأب لا يعتمد فقط على الدور المادى بل هو دفة التوجيه

وإن المرأة التى تلعب الدورين فى وقت واحد فهى تغامر وتقامر بالدفة ويغرق معها قارب الطفولة.

وكم من نساء صابرات لا يرى طرفا لهن خلقت جيلا ذا قيم وأخلاق فاقت قيم الكثير، فتخيروا فإن العرق دساس.

ولا يشك أى عاقل مهما كان أن الأم والأب هما القدوة الصالحة فى ميدان الطفولة الأخضر الذى ينمو ليكون سندا قويا بالمجتمع، وإن الرفق بين الزوجين هو نعمة تؤثر فى النفوس الكريمة ما لا تؤثر القسوة، وإن سعة البال وعدم التعجل من طرفى العلاقة لهو مطلب من الطرفين و أمر جاد فطريق الألف ميل يبدأ بالخطوة.

وإننى فى هذا المقال أدعو القائمين بالتربية والتعليم أن يضعوا فى مناهج التعليم مادة عن كيفية بناء الأسرة السليمة وارتباط الأسرة بالقيم والأخلاق وصدق الله تعالى حين قال: **(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)** (٢١) الروم.

وعلى القائمين فى المجال الاجتماعى مساعدة الراغبين فى الزواج، لأنه الحصن الحصين، وما هو خارج الإطار فإنه يفرز أمراضا مجتمعية وعشوائية فكرية وشرذمة.

المقال السادس
انهيار الرموز والقيم ـ سموم الفتنة

تطرقت فى مقالتى السابقة عن انهيار الرموز عن الأسرة والقدوة ونداء الطفولة، وما إن طرق لى أن أتناول موضوع المؤثرات الخارجية من الإعلام الهابط والسينما الخليعة ودور الأفلام الهابطة، وفضلت أن أجمعها أو ما يشابهها فى سلة واحدة أقول عنها هى سلة السموم، وإذا قلت سلة سموم فلها من القصد الكثير، فالسلة كما هو معروف هى وعاء من قصب أو ما شابهه تحمل فيه المؤن، وقصدا فى التسمية فإن السلة كمفرد أو السلال كجمع يمكن أن يتسرب منها الكثير فتسقط على الأرض فتلوث مكانها فما بالك إذا كانت السلال المعروضة والتى نحملها إلى بيوتنا فيها الكثير من السموم، إنها سلة سموم الفتنة من المرئيات أو المسموعات أمام أعيننا أو على أسماعنا، وما إن ذهب عقلى إلى هذا الوصف تذكرت فورا قول الله تعالى حين يهذب أخلاقياتنا فى تربية أولادنا وغيرهم فى قضية الاستئذان، فيقول تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)** (٥٨) النور.

فهذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض. وما تقدم فى أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض. فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم فى ثلاثة أحوال كما فى الآية فقلت فى نفس: ى وما بال من نفتح له الباب من ريموت كنترول بين أيدينا ليدخل علينا وعلى عوراتنا يبث سمومه أيما شاء وقتما شاء، ونسينا حديثا قدسيا عن رب العزة، قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم: «إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلمُّوا إلى حاجتكم ـ أى وجدوا بغيتهم ـ قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم، ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأونى؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: وكيف لو رأونى؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً، قال: يقول: فما يسألونني؟ قال: يسألونك الجنة، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة، قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافة، قال: فيقول: فأشهدكم أنى قد غفرت لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم».

وقلت فى نفسى: ما قيمة الوقت فى حياتنا وما خطورة تقديم الوقت فى حياتنا؟ تذكرت حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»، وتوقفت أيضا عند الآية **(وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) – القصص ٧٣.**

مما سبق نصل إلى (سلة السموم التى نسمح لها بالدخول عبر ريموت كنترول لمشاهدة فضائيات أو نت أو غيره وأمام قضية الاستئذان التى أصبحت بلا حدود أو ضوابط، وقضية الوقت والنعمة المغبونة، ثم الرحمة فى الليل والنهار ونأتى إلى الملائكة حين يطوفون على العباد) ولهذا نضع هذه النقاط ونفكر فيها ومن ثم نستعرض ما توصلنا إليه من الغذاء المسموم، وقد وضعت فى ذهنى تصورا، كيف أن هذه الأدوات الحديثة وما تحمله لنا من سلبيات، أضاعت شبابنا فى قيمهم وأخلاقياتهم وسلوكهم وعلى الرغم أن القضية ليست فى استخدامه، ولكن القضية فى اختيارنا نحن وآلية ضبط الاستخدام.

أن الوقت والصحة ارتبطا معا، فهل يمكننى القول أن أطلق اسم مرض نقص المناعة الإعلامية، بدلا من نقص المناعة المكتسبة أو طاعون العصر لما يصل بنا إلى حد تدمير الخلايا العقلية والفكرية والأخلاقية، إنها مفسدة التاريخ فى انحلال حضارات الأمم.

إنه لن المحزن لمن يتفحص كل ما نطالعه أو نراه يحث على زيادة الهوة بين الرجل والمرأة وبين الزوج وزوجته من ناحية وبين الأب وابنيه ولدا أو بنتا، فكم من المشاهد نسمع على آذاننا أن يقال للابن أو البنت أنت حرة أو أنت حر، كم سمعنا تمردا على الحجاب والدعوات على خلعه وإنه قيد أغلال وكم من دعوات تدعو لرفض الزواج واعتباره ظلما وتعديا وتسلطا وتجبر، كم شاهدنا من السقطات فى القصص والأفلام وما نشاهد وما يروى أمامنا عن أن إنجاب الأبناء لا قيمة لهم وأن المحبة بين الأزواج أو للزوج خاصة ذله وضعف وكم من مسلسلات تبرر إشكال الخيانة وتسهل العلاقات، وكم من كؤوس وخمر نراها ونشاهدها، وكأنه تأهيل إلى أنه أمر اعتيادى. إن من يألف منظرا يعتاد عليه ويصبح الاعتياد أمرًا طبيعيا لا خجل فيه وكأنه الطبيعى، والحق الصحيح ولا غبار عليه، إنها فتنة الإعلام المنحرف أو الشواذ من مفكرين وغيرهم، ونسوا إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر، أين نحن من هذا؟! وماذا يؤدى إلى تدمير أمة، كيف ترى أعيننا أنفسنا، وفى مقابل العرى الذى نراه فى واجهات الكثير من الإعلاميين نرى كلمات مضادة على رموز الدين وصفا بقبح وتصويرا يندى له الجبين وكأنها معركة لوأد الرمز الدينى وإعلاء الفجور.

سأعرض استعراضا سريعا، كم من العرى نرى فى مواقع إعلامية أو مشاهدات سينمائية أو طبول اللعنة من الفجرة لتفسد الباقى من الصالحين، إنها إثارة الفتن الجنسية والجسدية، إن الإعلام هو الخمر الذى يتلاعب بالعقول ولم نعد فى حاجه إلى خمر الكؤوس، إنها حرب ممنهجة، لهزيمة أمة وانهيار القيم، إن ما نراه من سموم تعرض علينا ونسمح لها دون استئذان، إنها جنود الشياطين من الإعلاميين، الذين يطلقون علينا وابلا من رصاص يخترق القيم فيميت ما تبقى، إنها الطبول حين تقرع على أعتاب غانية أو أقدام راقصة، فنقع فى بحر الرزيلة وكأنه أمر اعتيادى، لقد أصبحت

الحرمات والمحرمات بين الرجل والمرأة فيه تساهل كبير، وبدأت كلمات تدخل لتغير المفاهيم من كلمة زانية إلى بائعة الهوى والى ذات الحب والهوى أو الأرملة الطروب، وأصبح الإعلام يغرس فى قلوب أولادنا وحتى كبارنا مفاهيم خاطئة، لتصرفنا جميعا عن طاعة الله ولنتذكر قول الله يقول الله جل وعلا **(وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ)(الحشر: ١٩).**

لقد انصرفت الفتيات إلى الأزياء والحلى والعرى والخلاعة ونسين **(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أو آبَائِهِنَّ أو آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أو أَبْنَائِهِنَّ أو أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أو إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِى إِخْوَانِهِنَّ أو بَنِى أَخَوَاتِهِنَّ أو نِسَائِهِنَّ أو مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أو التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أو الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) – النور ٢٤.**

لقد صار المجال خصبا يرتع فى بحر من الشهوات المتأججة ونيران تبحث عن حطب الحرام وقودا كى يزيد الفساد بابا إلى باب وتنتشر العلاقات المحرمة فى أفلام وأقلام مسمومة تغرس مبادئ الانهيار، إنها سفينة السفه الإعلامية والكتاب المأجورين، لقد وصل الأمر فى كثير من الأفلام تحريض المرأة على الرجل وحرضت المرأة على الشريعة ودعوى خلع الحجاب، لقد بدت بعض النساء فى التمرد والاكتفاء بطفل وتحديد النسل، وذهبت وراء عواء الذئاب والهاوية منها تقترب بل فى أحيان كثيرة تسعى إليها وما نراه من وسائل الاتصال الاجتماعى وما زين فيه من إغراءات أو إيحاءات أو مشاهدات حية ومباشرة تدعو إلى الغريزة وإحياء نار الشهوة وتفجرها فى حفلات جماعية ترصدها أخبار المجتمع، ويطالعنا عليها عناوين الأخبار المسمومة المقصودة.

إن خطورة الإعلام أو المشاهدات تكمن فى ترسيب المواقف فى العقل الباطن دون يشعر أحد، وإن أخطر قضية أراها هو أن التأثير يبدو فى زرع بذور الشك، إنه الشك القاتل المميت الذى يؤدى إلى الجريمة والخلل النفسى والاضطرابات النفسية من الاكتئاب والأمراض النفسية، ان حوادث الطلاق التى تحدث ربما يكون الدور الإعلامى له دور كبير فيها، وإذا كان الخلافات الزوجية وهى الأساس

فـى انهيـار الأسـرة والتـى تعتـبر مسـتهدفة فـى هـدم الرمـز الحقيقـى فـإن القـرارات التـى تتخـذ مـا بـين الأزواج تتأثـر كثـيرا ببرامـج التلفزيـون أو الأفـلام والمسلسـلات الهابطـة والتـى هـى مـن بـذر الشـياطين، وقـد سـاهم الصحـن الفضائـى أو مـا يطلـق عليـه الـدش فـى فتـح البـاب عاريـا يتعـرى أمامنـا و نتعـرى أمامـه وكأننـا أصبحنـا فـى عـالم العـراة، ولا حـرج فيمـا يحـدث أمامنـا أو مـن خلفنـا حيـث إن الصحـون لم تعـد حصونـا تـدار فـى بيـت واحـد، وربمـا فـى الغـرف المجـاورة يشـاهده البنـات والبنـون منفرديـن أو مجتمعـين وهـى كارثـة مـا بعدهـا كارثـة، لقـد نسـى الآبـاء تعاليـم أبنائهـم، قَـالَ رَسُـولُ اللَّهِ صَلَّـى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ: «**مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍوَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِى الْمَضَاجِعِ**».

إن المعاصـى تجـر بعضهـا بعضـا، إن المشـاهدة للصحـون أصبحـت عـادة وحـدث ولا حـرج، وإذا كانـت الدنيـا تشـغل بـال الأزواج فإنـى أطـرح سـؤالا: مـن يربـى أطفالنـا؟ أمربيـة أجنبيـة عـن البيـت؟ تعلـم أولادنـا مـن ثقافتهـا، وتخطـف رب الأسـرة ؟ إن الأولاد ضحيـة الآبـاء، والآبـاء ضحيـة مدنيـة زائفـة، وتكالـب علـى المـادة متغافلـين دورهـم الحقيقـى، وتباعـد دور الآبـاء الرقابـى. إنهـا ثقافـة الإعـلام المرئيـة حـين ينطـق الأبنـاء سـواء بنتـا بالقـول أنـا حـرة وابنـا أنـا حـر، فليجـن الجميـع مـن الحريـة الطائشـة. إنهـا فوضـى الحريـة.

إن مـن المؤثـرات، إضافـة إلى الإعـلام، علـى تربيـة أولادنـا المنـزل، والشـارع والمدرسـة، فكيـف نـرى أولادنـا الآن، إن جرائـم المجتمـع زادت ممـا أدى إلى تفشـى الأمـراض المجتمعيـة. إن فيضـان الفسـاد لـن يقيـه جبـل ولا يقيـه عاصمـا إلا تقـوى الله، فلنتـق الله فعـلا وعمـلا ومراقبـة أولادنـا ولنعلـم أن كل امـرئ مسـئول عـن رعيته.